(١)
موقف الإسلام من الفن والجمال

(١) موقف الإسلام من الفن والجمال

● **غياب الحقيقة بين الغلو والتفريط:**

لعل من أغمض الموضوعات وأعقدها إن لم يكن أغمضها وأعقدها بالفعل – فيما يتعلق بالحياة الإسلامية: موضوع اللهو والفنون.

وذلك أن أكثر الناس وقعوا في هذا الأمر بين طرفي الغلو والتفريط، نظرا لأنه أمر يتصل بالشعور والوجدان، أكثر مما يتصل بالعقل والفكر، وما كان شأنه كذلك فهو أكثر قبولا للتطرف والإسراف من ناحية، في مقابلة التشدد والتزمت من ناحية أخرى.

فهناك من يتصورون المجتمع الإسلامي مجتمع عبادة ونسك، ومجتمع جد وعمل، فلا مجال فيه لمن يلهو ويلعب، أو يضحك ويمرح، أو يغني ويطرب. لا يجوز لشفة فيه أن تبتسم، ولا لسن أن تضحك، ولا لقلب أن يفرح، ولا لبهجة أن ترتسم على وجوه الناس!!

وربما ساعدهم على ذلك سلوك بعض المتدينين، الذين لا ترى أحدهم إلا عابس الوجه، مقطب الجبين، كاشر الناب، وذلك لأنه إنسان قاس أو يائس أو فاشل أو مريض بالعقد والالتواءات النفسية، ولكنه برر ذلك السلوك المعيب باسم الدين، أي أنه فرض طبيعته المنقبضة المتوجسة السوداء على الدين، والدين لا ذنب له إلا سوء فهم هؤلاء له، وأخذهم ببعض نصوصه دون بعض.

وقد يجوز لهؤلاء أن يشددوا على أنفسهم إذا اقتنعوا بذلك، ولكن الخطر هنا: أن يعمموا هذا التشديد على المجتمع كله، ويلزموه برأي رأوه، في أمر عمت به البلوى، ويمس حياة الناس كافة، في البدو والحضر، والريف والمدن، والجنوب والشمال، والمشرق والمغرب.

وعلى العكس من هؤلاء: الذين أطلقوا العنان لشهوات أنفسهم، فجعلوا

الحياة كلها لهوا ولعبا، وأذابوا الحواجز بين المشروع والممنوع.. بين المفروض والمرفوض.. بين الحلال والحرام.

فتراهم يدعون إلى الانحلال، ويروجون الإباحية، ويشيعون الفواحش ما ظهر منها وما بطن، باسم الفن، أو الترويح، ونسوا أن العبرة بالمسميات والمضامين، لا بالأسماء والعناوين. والأمور بمقاصدها.

ولهذا كان لابد من نظرة منصفة إلى الموضوع – بعيدا عن إفراط هؤلاء، وتفريط أولئك – فى ضوء النصوص الصحيحة الثبوت، الصريحة الدلالة، وفى ضوء مقاصد الشريعة وقواعد الفقه المقررة كذلك.

ولا يسعنى فى هذا المجال إلا التفصيل، فقد كتبت فى مفردات الموضوع فى أكثر من كتاب لى. وخصوصا فى «الحلال والحرام فى الإسلام» و«فتاوى معاصرة» الجزء الأول والجزء الثانى.. وعلى الأخص الثانى، وفى كتابى «ملامح المجتمع المسلم» فصل (اللهو والفنون) وقد أخرجته فى رسالة مستقلة مع بعض زيادات، بعنوان «الإسلام والفن».

مبادىء أساسية فى الموقف من الفن:

والخلاصة التى أود ذكرها هنا تتمثل فى هذه المبادىء أو الحقائق:

واقعية الإسلام فى التعامل مع الإنسان كله:

إن الإسلام دين واقعى، فهو يتعامل مع الإنسان كله: جسمه وروحه وعقله ووجدانه، ويطالبه أن يغذيها جميعا، بما يشبع حاجتها، فى حدود الاعتدال، الذى هو صفة «عباد الرحمن»: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٧] وليس هذا خُلُقهم فى أمر المال فقط، بل هو خُلُقٌ أساسى عام فى كل الأمور، هو المنهج الوسط للأمة الوسط.

وإذا كانت الرياضة تغذى الجسم، والعبادة تغذى الروح، والعلم يغذى العقل، فإن الفن يغذى الوجدان.

ونريد بالفن: النوع الراقى منه، الذى يسمو بالإنسان، لا الذى يهبط به.

القرآن ينبه على عنصرى المنفعة والجمال فى الكون:

وإذا كانت روح الفن هى الإحساس بالجمال وتذوقه، فهذا ما عُنى القرآن بالتنبيه عليه وتأكيده فى أكثر من موضع.

فهو يلفت النظر بقوة إلى عنصر «الحُسن» أو «الجمال» الذى أودعه الله فى كل ما خلق، إلى جوار عنصر «النفع» أو «الفائدة» فيه.

كما أنه شرع للإنسان الاستمتاع بالجمال أو «الزينة» مع المنفعة أيضا.

يقول الله تعالى فى معرض الامتنان بالأنعام: ﴿ **وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴾ [النحل: ٥]، وفى هذا تنبيه على جانب المنفعة والفائدة، ثم يقول: ﴿ **وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ** ﴾ [النحل: ٦] فهذا تنبيه على الجانب الجمالى، حيث يلفتنا إلى هذه اللوحة الربانية الرائعة، التى لم ترسمها يد فنان مخلوق، بل رسمتها يد الخالق سبحانه.

وفى نفس السياق يقول سبحانه: ﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً** ﴾ [النحل: ٨]، فالركوب يحقق منفعة مادية مؤكدة، أما الزينة فهى متعة جمالية فنية، بها يتحقق التكامل للوفاء بحاجات الإنسان كل الإنسان.

وفى هذا السياق من نفس السورة امتن الله تعالى بتسخير البحر فقال: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا** ﴾ [النحل: ١٤] فلم يقصر فائدة البحر على العنصر المادى المتمثل فى اللحم الطرى الذى يؤكل، فينتفع به الجسم، بل ضم إليه الحلية التى تلبس للزينة، فتستمتع بها العين والنفس.

وهذا التوجيه القرآنى تكرر فى أكثر من مجال، ومن ذلك: مجال النبات والزرع والنخيل والأعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه، يقول تعالى فى

موضع من سورة الأنعام: ﴿ **كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وفى موضع آخر من نفس السورة يقول بعد ذكر الزرع وجنات النخيل والعنب ﴿ **انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأنعام: ٩٩].

فكما أن الجسم فى حاجة إلى الأكل من الثمر إذا أثمر، فإن النفس فى حاجة إلى الاستمتاع بالنظر إلى ثمره إذا أثمر وينعه، وبهذا يرتفع الإنسان أن يكون همه الأول والأوحد هو هم البطن.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

فأخذ الزينة لحاجة الوجدان، والأكل والشرب لحاجة الجثمان، وكلاهما مطلوب.

وكذلك نجد الاستفهام الإنكارى فى الآية الثانية ينصب على أمرين: تحريم «زينة الله» التى أخرج لعباده، وتحريم «الطيبات» من الرزق، و«زينة الله»، تجسد عنصر الجمال الذى هيأه الله لعباده، بجوار عنصر المنفعة الذى يتمثل فى «الطيبات من الرزق». وتأمل هذه الإضافة - إضافة كلمة «زينة» - إلى لفظ الجلالة «زينة الله» ففيها تشريف لهذه الزينة وتنويه بها.

وفى هذا السياق جاء قبل هاتين الآيتين قوله تعالى فى شأن اللباس: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ** ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فقد جعلت الآية اللباس - الذى امتن الله تعالى بإنزاله - أنواعا، وإن شئت قلت: جعلت له مقاصد ومهمات: مقصد: «الستر» المعبر عنه بقوله: (يوارى سوءاتكم)، ومقصد «التجمل والزينة» المعبر عنه بقوله:

« وريشا » ومقصد « الوقاية » من الحر والبرد، المعبر عنه بقوله: « ولباس التقوى ».

المؤمن عميق الإحساس بالجمال في الكون والحياة والإنسان:

إن المتجول في رياض القرآن يرى بوضوح: أنه يريد أن يغرس في عقل كل مؤمن وقلبه الشعور بالجمال المبثوث في أجزاء الكون، من فوقه ومن تحته ومن حوله: في السماء، والأرض، والنبات، والحيوان، والإنسان.

في جمال السماء يقرأ قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** ﴾ [ق: ٦]، ﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ** ﴾ [الحجر: ١٦].

وفي جمال الأرض ونباتها يقرأ: ﴿ **وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [ق: ٧]. ﴿ **أَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ** ﴾ [النمل: ٦٠].

وفي جمال الحيوان يقرأ ما ذكرناه قبل عن الأنعام: ﴿ **وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ** ﴾ [النحل: ٦].

وفي جمال الإنسان يقرأ: ﴿ **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** ﴾ [التغابن: ٣]، ﴿ **الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

إن المؤمن يرى يد الله المبدعة في كل ما يشاهده في هذا الكون البديع، ويبصر جمال الله في جمال ما خلق وصور، يرى فيه ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** ﴾ [السجدة: ٧].

وبهذا يحب المؤمن الجمال في كل مظاهر الوجود من حوله؛ لأنه أثر جمال الله جلا وعلا.

وهو يحب الجمال كذلك؛ لأن «الجميل» اسم من أسمائه تعالى الحسنى وصفة من صفاته العلا.

وهو يحب الجمال أيضاً، لأن ربه يحبه، فهو جميل يحب الجمال.

إن الله جميل يحب الجمال:

وهذا ما علمه النبى ﷺ لأصحابه، وقد توهم بعضهم أن الولَع بالجمال ينافى الإيمان، أو يدخل صاحبه فى دائرة الكبر المقيت عند الله وعند الناس.

روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كِبْر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنا. قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» (١).

القرآن معجزة جمالية:

والقرآن الكريم آية الإسلام الكبرى، ومعجزة الرسول العظمى: يعتبر معجزة جمالية، إضافة إلى أنه معجزة عقلية، فقد أعجز العرب بجمال بيانه، وروعة نظمه وأسلوبه، وتفرد لحنه وموسيقاه، حتى سماه بعضهم سحرا.

وقد بين علماء البلاغة وأدباء العربية وجه الإعجاز البيانى أو الجمالى فى هذا الكتاب، منذ عبد القاهر إلى الرافعى وسيد قطب وبنت الشاطىء وغيرهم فى عصرنا.

ومن المطلوب فى تلاوة القرآن أن ينضم جمال الصوت والأداء إلى جمال البيان والنظم. ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾ [المزمل: ٤].

وقال الرسول ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم» (٢)، وفى لفظ آخر: «فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا» (٣).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه باللفظ الأول أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان والدارمى، وباللفظ الآخر الدارمى والحاكم، كلهم عن البراء كما فى صحيح الجامع الصغير (٣٥٨٠ و٣٥٨١).

وقال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[1]، ولكن التغني المطلوب لا يعنى التلاعب أو التحريف.

وقال عليه الصلاة والسلام لأبى موسى: «لو رأيتنى وأنا أستمع قراءتك البارحة! لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود»! فقال أبو موسى: «لو علمت ذلك لَحَبَّرْتُه لك تَحْبيرا»!![2] يعنى: زدت فى تجويده وإتقانه وتحسين الصوت به.

وقال: «ما أذن الله لشىء، ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن، يجهر به»[3].

والقد سمعت شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله يحكى لنا عن موقف له فى المجلس الأعلى للإذاعة، وقد كان عضوا فيه: أنهم أرادوا أن يجعلوا وقت قراءة القرآن فى الافتتاح والختام وبعض الفترات محسوبا على نصيب الدين فقط، فقال لهم: إن سماع القرآن ليس دينا فقط. إنه استمتاع أيضا بالفن والجمال المودع فى القرآن، والمؤدى بأحسن الأصوات.

وهذا صحيح، فالقرآن دين وعلم وأدب وفن معا. فهو يغذى الروح، ويقنع العقل، ويوقظ الضمير، ويمتع العاطفة، ويصقل اللسان.

التعبير عن الجمال:

وإذا كان الإسلام قد دعا إلى الإحساس بالجمال وتذوقه وحبه، فإنه قد شرع التعبير عن هذا الإحساس والتذوق والحب بما هو جميل أيضاً.

فنون القول والأدب:

وأبرز ما يتجلى ذلك فى فنون القول من الشعر والنثر والمقامة والقصة

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة، ورواه آخرون عن عدد من الصحابة.

(٢) رواه مسلم عن أبى موسى، ورواه البخارى وغيره عن جمع من الصحابة بألفاظ أخر.

(٣) رواه أحمد والشيخان وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة، كما فى صحيح الجامع الصغير (٥٥٢٥).

والملحمة، وسائر فنون الأدب، وقد استمع النبى ﷺ إلى الشعر وتأثر به، ومنه قصيدة كعب بن زهير الشهيرة «بانت سعاد» وفيها من الغزل ما هو معروف، وقصيدة النابغة الجعدى، ودعا له، ووظف الشعر فى خدمة الدعوة والدفاع عنها، كما صنع مع حسان. واستشهد بالشعر كما فى قوله: «أصدق كلمة قالها شاعر: كلمة لبيد: ألا كل شئ ما خلا الله باطل» (١).

واستشهد أصحابه بالشعر، وفسروا به معانى القرآن، بل منهم من قاله، وأجاد فيه، كما يروى عن على كرم الله وجهه. وهناك عدد كبير من الصحابة كانوا شعراء.

وكثير من الأئمة الكبار كانوا شعراء، مثل الإمام عبد الله بن المبارك، والإمام محمد بن إدريس الشافعى وغيرهما.

وقال ﷺ: «إن من الشعر حكمة» (٢). «إن من البيان لسحرا» (٣)، «إن من البيان سحرا، وإن من الشعر حكما» (٤).

ومفهوم الحديث أن من الشعر ما هو بعيد عن الحكمة بل هو نقيضها، مثل شعر المديح بالباطل، والفخر الكاذب، والهجاء المتعدى، والغزل المكشوف، ونحو ذلك مما لا يتفق مع القيم الأخلاقية والمثل العليا.

ولهذا ذم القرآن الشعراء الزائفين، والمزيفين الذين لا يتورعون عن شىء، والذين تكذب أفعالهم وأقوالهم. وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ * إِلاَّ**

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة.

(٢) متفق عليه عن أبى، وقد روى عن جمع من الصحابة. صحيح الجامع الصغير (٢٢١٩).

(٣) رواه مالك وأحمد والبخارى وأبو داود والترمذى عن ابن عمر. المصدر السابق (٢٢١٦).

(٤) رواه أحمد وأبو داود عن ابن عباس. المصدر نفسه (٢٢١٥).

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾

[الشعراء: ٢٢٤، ٢٢٧]

فالشعر – والأدب عامة، والفن بوجه أعم – له هدف ووظيفة، وليس سائبا، فهو شعر ملتزم، وأدب ملتزم، وفن ملتزم.

أما القوالب التى يظهر فيها الشعر أو الأدب فلا مانع من تغيرها وتطورها، واقتباس ما يلائمنا مما عند غيرنا. المهم هو الهدف والمضمون والوظيفة.

اخترع العرب قديما قوالب فى الشعر كالموشحات، وغيرها فى الأندلس. ولهذا لا بأس من قبول القوالب الجديدة فى الشعر المعاصر. كالشعر الحر، إذا كان مضمونه مقبولا شرعا.

كذلك ابتكر العرب فى العصور الإسلامية قوالب أدبية كالمقامات، والقصص الخيالية، كما فى « رسالة الغفران » و« ألف ليلة وليلة » وترجموا مثل « كليلة ودمنه » وألف المتأخرون الملاحم الشعبية مثل قصة « عنترة » وسيرة « بنى هلال » إلى غير ذلك من القوالب.

وفى عصرنا يمكننا أن نستحدث من القوالب ما شئنا، وأن نقتبس من غيرنا ما ينفعنا، كالمسرحية والرواية والقصة القصيرة.

والذى نود تأكيده هنا هو ضرورة الالتزام بالعربية الفصحى، والحذر من المحاولات المشبوهة لترويج اللهجات العامية المختلفة للشعوب العربية، فإنها تهدف إلى المباعدة بينها وبين القرآن والسنة، كما تهدف إلى تشبيت الفرقة والتجزئة الإقليمية، التى تحرص على بقائها القوى المعادية للعروبة والإسلام.

ويغنى عن ذلك اللغة السهلة التى تفهم الجماهير العربية بها نشرات الأخبار فى الإذاعة والتلفاز، وتفهم بها الصحف التى تطالعها كل يوم.

كما أن الفصحى هو التى تقرب بين العرب وسائر أبناء الإسلام ممن يتعلمون العربية، فإنهم لا يتعلمون إلا الفصحى، ولا يستطيعون التفاهم مع الجميع إلا بها.

وقد وجُهت إليّ فى أكثر من مكان أسئلة حول شرعية بعض القوالب الإسلامية الأدبية كالمسرحية والقصة، حيث يخترع القَصَّاص أو المؤلف المسرحى شخصيات، ويُنطقها بأقوال وأمور لم تحدث فى الواقع، فهل يدخل هذا فى دائرة الكذب المحرم شرعا؟

وكان جوابى: أن هذا لا يدخل فى الكذب المحظور؛ لأن السامع يعرف جيدا أن المقصود ليس هو إخبار القارىء بوقائع حدثت بالفعل، إنما هو أشبه بالكلام الذى يُحكى على ألسنة الطيور والحيوانات، فهو من باب التصوير الفنى واستنطاق الأشخاص بما يمكن أن ينطقوا به فى هذا الموقف. كما حكى القرآن عما تكلمت به «النملة» أو نطق به الهدهد أمام سليمان عليه السلام. فمن المؤكد أنهما لم يتحدثا بهذا الكلام العربى المبين، إنما ترجم القرآن عما يمكن أن يكون قولهما فى هذا الوقت، وذلك الموقف.

وقد شاركت شخصيا فى التأليف المسرحى بعملين:

أحدهما: مسرحية شعرية عن «يوسف الصديق» عليه السلام. وذلك فى مطلع حياتى الأدبية، وأنا فى السنة الأولى من المرحلة الثانوية، وكنت متأثرا فى ذلك بمسرحيات شوقى الشهيرة.

والثانى: مسرحية تاريخية عن سعيد بن جبير والحجاج بن يوسف، سميتها «عالم وطاغية» وقد مُثِّلَت فى أكثر من بلد، ولاقت قبولا حسنا. بخلاف الأولى؛ لأنها تتعلق بقصة نبى مرسل، والاتفاق بين علماء العصر منعقد على أن الأنبياء لا يُمَثَّلون.

* * *

فى الجمال المسموع
(الغناء والموسيقى)

لقد تبين فيما ذكرناه من خلال النصوص: عناية الإسلام بالجمال، وحرصه على تربية تلك الحاسة التى تجعل الإنسان يشعر بالجمال ويتذوقه فى مجالاته المتنوعة.

ومن الجمال ما يتجلى لحاسة السمع، ومنه ما يتجلى لحاسة البصر، ومنه ما يتجلى لحواس أخرى.

ونريد هنا أن نتحدث عن «الجمال المسموع» وبعبارة أخرى: عن الغناء سواء أكان بآلة موسيقية أم بغير آلة، ويلزمنا أن نجيب عن هذا السؤال الكبير: ما حكم الإسلام فى الغناء والموسيقى؟

معنى الغناء فى اللغة:

ونبدأ هنا بفائدة لغوية، وهى: بيان معنى (الغناء) فى لغة العرب.

قال فى القاموس وشرحه: الغناء - ككساء - من الصوت ما طرب به.

وفى الصحاح: الغناء - بالكسر - من السماع.

وفى النهاية: هو رفع الصوت وموالاته.

وقال أبو سليمان الخطابى رحمه الله تعالى: كل من رفع صوته بشىء ووالى به مرة بعد أخرى فهو غناء عند العرب، وأكثره فيما شاق من ضرب، أو شجا من نغمة ولحن، فلذلك قيل: غَنَّت الحمامة وتَغَّنى الطائر.

قال المجنون:

ألا قاتل الله الحمامة غدوة ... على الغصن ماذا هيجت حين غنّت!

تغنت بصوت أعجمى، فهيجت ... هواى، الذى كانت ضلوعى أجنّت!

وقال ابن القوطية: فى كتابه فى المقصور والممدود الغناء المسموع: ممدود.

وأنشد الفرّاء:

تَغَنَّ بالشّعر أمَّا كنتَ قائلَه إنَّ الغناء بهذا الشِّعْر مضْمَارُ [1]

وفى «المحكم»: وقد غنى بالشعر، وتغنى به، وبينهم أُغْنِيَّة يَتَغَنَّوْن بها، أى نوع من الغناء.

ما حكم الإسلام فى الغناء والموسيقى؟

سؤال يتردد على ألسنة كثيرين فى مجالات مختلفة وأحيان شتَّى.

سؤال اختلف جمهور المسلمين اليوم فى الإجابة عنه، واختلف سلوكهم تبعا لاختلاف أجوبتهم، فمنهم من يفتح أذنيه لكل نوع من أنواع الغناء، ولكل لون من ألوان الموسيقى، مدعيا أن ذلك حلال طيب من طيبات الحياة التى أباح الله لعباده.

ومنهم من يغلق الراديو أو يغلق أذنيه عند سماع أية أغنية قائلا: إن الغناء مزمار الشيطان، ولهو الحديث ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة وخصوصا إذا كان المغنى امرأة، فالمرأة - عندهم - صوتها عورة بغير الغناء، فكيف بالغناء؟ ويستدلون لذلك بآيات وأحاديث وأقوال.

من هؤلاء من يرفض أى نوع من أنواع الموسيقى، حتى المصاحبة لمقدمات نشرات الأخبار.

ووقف فريق ثالث مترددا بين الفريقين؛ ينحاز إلى هؤلاء تارة، وإلى أولئك طورا، ينتظر القول الفصل والجواب الشافى من علماء الإسلام فى هذا الموضوع الخطير، الذى يتعلق بعواطف الناس وحياتهم اليومية، وخصوصا بعد أن دخلت الإذاعة - المسموعة والمرئية - على الناس بيوتهم، بجدها وهزلها، وجذبت إليها أسماعهم بأغانيها وموسيقاها طوعا وكرها.

---

(١) ورد البيت غير منسوب فى اللسان (١٩/٣٧٦).

والغناء بآلة – أى مع الموسيقى – وبغير آلة: مسألة ثار فيها الجدل والكلام بين علماء الإسلام منذ العصور الأولى، فاتفقوا فى مواضع واختلفوا فى أخرى.

اتفقوا على تحريم كل غناء يشتمل على فحش أو فسق أو تحريض على معصية، إذ الغناء ليس إلا كلاما، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح، وكل قول يشتمل على حرام فهو حرام، فما بالك إذا اجتمع له الوزن والنغم والتأثير؟

واتفقوا على إباحة ما خلا من ذلك من الغناء الفطرى الخالى من الآلات والإثارة، وذلك فى مواطن السرور المشروعة، كالعرس وقدوم الغائب، وأيام الأعياد.. ونحوها، بشرط ألا يكون المغنى امرأة فى حضرة أجانب منها.

وقد وردت فى ذلك نصوص صريحة – سنذكرها فيما بعد.

واختلفوا فيما عدا ذلك اختلافا بيّنا: فمنهم من أجاز كل غناء بآلة وبغير آلة، بل اعتبره مستحبا، ومنهم من منعه بآلة وأجازه بغير آلة، ومنهم من منعه منعا باتا بآلة وبغير آلة، وعده حراما، بل ربما ارتقى به إلى درجة «الكبيرة».

ولأهمية الموضوع نرى لزاما علينا أن نفصّل فيه بعض التفصيل، ونلقى عليه أضواء كاشفة لجوانبه المختلفة؛ حتى يتبين المسلم الحلال فيه من الحرام، متبعا للدليل الناصع، لا مقلدا قول قائل، وبذلك يكون على بينة من أمره، وبصيرة من دينه.

وهذا هو واجب العلماء فى هذه المزالق والمعتركات ومفارق الطرقات، التى تلتبس فيها السبل، وتزل الأقدام، وتضل الأفهام، ويحتاج الناس إلى الدليل الذى يضىء لهم الإشارة الخضراء ليمضوا، أو الحمراء ليتوقفوا. نسأل الله أن يرينا الحق حقا، ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه.

وسنبدأ بذكر (أدلة المحرِّمين) ونناقشها دليلا دليلا، حتى إذا فرغنا منها. بدأنا بأدلة المبيحين. وقدمناها دليلا بعد دليل. مرجحين الرأي الذى تسنده الأدلة والاعتبارات الشرعية.